حدثيني عن نفسك

ضم ذراعي ونحن نعبر احدى الساحات الغاصة بالسيارات فأحسست بالدفء يغمر قلبي، وعندما بلغنا الرصيف الثاني نظر الي بحنان وقال:

-حدثيني عن نفسك..

وأحرجت، ماذا أقول له؟ ليس في حياتي ما يثير، هل أخبره عن آمالي وطموحي، هل أحدثه عن أدبي؟ ان عالمي هو أوسع بكثير، عالمي هو دفقة مشاعري، هو شوقي الملح للأمومة، هو نضالي العنيد ضد الفناء، هو حبي الغامر للحياة، هو قلقي الدائم لمصير الإنسان، هو غضبي للظلم والعدوان، هو لهفتي لتنتصر العدالة والسلام!..

ماذا أقول له وقد سألني عن نفسي؟

-ستعرفني بنفسك، انني لست معقدة وأنت قوي الملاحظة..

وابتسم ابتسامة رحبة وقال:

-قولي شيئا، ان أمرك يهمني كثيرا..

-مدرّسة بعقد.. طالبة منتسبة لجامعة لندن وأتممت نصف المرحلة الجامعية، وأستعد لامتحان BA العام المقبل.. أكتب قصصا للإذاعة عن فلسطين، وكما عرفت، نحن لاجؤون، ولكننا من أصل سوري.. هذا وضعي الإجتماعي.. مدرّسة غير مؤهلة وربما فاشلة، وأديبة مغمورة لا يتجاوز من يعرفني أصابع اليد.. وأردفت ضاحكة:

-لا تصدق! انني أحب طالباتي وهن يحببنني، وأثق بمستقبل أدبي..

-وغير ذلك؟ هل أنت مرتبطة مثلا؟

-كلا..

-أتصدقين أنني سمّرت في مكاني اذ رأيتك عند مبنى الأركان.. لكأنني أعرفك منذ عهد بعيد.. ماذا كنت تفعلين؟

-كنت أريد الحصول على وثيقة لاسترداد جنسيتي السورية، فهي تفيدني في العمل واستكمال دراستي.. وحين وجدت نفسي في المبنى خطر لبالي أن أسأل المالكي عن سبب اغتيال العقيد محمد ناصر الذي كان زوج ابنة عمي وأعرفه

جيدا، فأحالني الى زهير الصلح فحشد لي مجموعة الضباط الذين كنت واحدا منهم ليدلوا بأقوالهم..

وصلنا الى شارع مزدحم بالسيارات والناس، سألني:

-هل شاهدت المعرض؟

-بعض الأقسام وعلى عجالة.

دخلنا الباب الكبير المزين بالأعلام، وكان يقف عنده بعض الشرطة، ووقفت أنظر الى الأرض المغمورة ببطاقات الدخول الممزقة وقلبي قلق مهموم لأنني لا أستطيع أن أطيل مكوثي في دمشق، هل يمكن أن يتمزق هذا اللقاء بيننا ويصبح مجرد ذكرى في حياتي؟

قطع تذكرتين ودخلنا الشارع الرحب الذي كان يبدو خاليا من الناس.. وسرنا جنبا الى جنب وبي نشوة ولهفة لا أستطيع احتمالها.. هل كنت أكبت عواطفي أعواما لأجعلها تتدفق هذا اليوم؟ وارتجفت اذ لامست يدي يده ونحن نسير، كنت أحاول أن أكتم مابي فلا ينم عني، ولكن عبثا حاولت أن أجعل خفقات قلبي تنتظم، ولامست يدي يده مرة أخرى ونحن نسير فاحتضنها بيده وضغطها بحنان.. ان الصمت يلهب العاطفة، هذا الصمت الذي يبوح، هذا الصمت الذي يغني، فقلت وأنا أشعر أنني أخدش الصمت الهائم الشرود..

-حدثني عن حياتك أنت، عن حوادث تركت في نفسك أثرا..

ابتسم وقال بعد لأي!

-مرت بي أزمة حين كنت أدرس في باريس فتغيرت بعدها كل المفاهيم في نظري..

انتابني القلق، أتراها أزمة دينية؟ وشعرت بأنني سأصاب بخيبة أمل كبيرة لوصدق ظني. ان من عرفت من المتدينين لم يتركوا أثرا طيبا في نفسي، لم أجد في تفكيرهم سوى الجمود، سوى عرقلة الحياة المنطلقة الى الأمام، والاّ الأنانية والنفاق والجهل. وعرفت بتجربتي أن التدين لا يقوّم عيبا خلقيا في انسان، بل كثيرا ما يكون ستارا يخفي به صاحبه ما يشعر به من نقص ومن عيوب..

كانت حادثة كادت أن تودي بحياته، اذ دخل مصعدا في الطابق الرابع، وكان لسبب ما معطّلا، ولم ينتبه أن المصعد غير موجود وهوى.. أخذ من حلاوة الروح يتمسك بالجدران بيديه مفرجا بين ساقيه يدفع بنفسه يمنة ويسرة ليخفف من صدمة الوقوع، ولما وصل الى القاع كانت يداه وذراعاه مكشوطة الجلد وبذلته مهترئة.. نقل الى المستشفى وعولج، ولم يكن به لخفة حركته كسور، واعتبر الأمر قضاء وقدرا كعادتنا نحن الشرقيين، ولكن رفاقه من الفرنسيين لم يسمحوا له أن يعتبر الأمر كذلك، وأصروا عليه أن يقيم دعوى على مالك البناء لأنه مسؤول عما جرى له وكاد يودي به بسبب إهماله، وأن هناك قوانين متطورة تحاسبه وتعاقبه على إهماله في فرنسا.. وفعل ما نصحوه به وكسب الدعوى! أردف قائلا:

-تعرفت في فرنسا على نمط جديد من الناس غير أولئك الذين عرفناهم من مستعمرين، أناس شرفاء يؤذي مشاعرهم ما يجري في العالم من امتهان لحقوق الإنسان.. يدافعون عن حقوق أهل الجزائر في الحرية والإستقلال أكثر مما يفعل العرب، وأكثر من الجزائريين أنفسهم، وعن الفلسطينيين المشردين من بلادهم أكثر من زعماء العرب.. أصبحت أقرأ كثيرا من كتب الإقتصاد الى جانب دراستي الأكاديمية، وأعرف الأسباب الكامنة وراء الحروب واستعمار الشعوب، وباختصار أصبحت أومن بالإنسان وبانتصار قضية الإنسان..

ضغطت يده وأنا أحس بالفرح العميق يتدفق غزيرا في قلبي:

-ان ردود فعلك تشبه ردود فعلي، فأنا أيضا واجهت الموت، اذ انفجر شريان في صدري وبقيت سبعة أيام بلياليها وأنا أنزف دمي.. ولما تعافيت أصبحت أومن أن على الإنسان أن يبني جنته على الأرض قبل أن يستحقها في السماء! ولما قلت لي بأنك مررت بأزمة تغيرت بها القيم في نظرك حسبت أنها أزمة دينية..

ضحك وقال: "لماذا؟ ألا تحبين المتدينين؟"

-ليس الأمر قضية حب أو كره.. أرى أن الحياة أعمق وأكثر تعقيدا مما مضى.. لست أدري كيف أعبر، ولكن عندما نبدأ من نقطة الإيمان الأعمى فان شيئا لن يتغير في هذا العالم!..

دخلنا بعض الأجنحة الرئيسية ووقفنا مليا في جناح الصين الشعبية وأخذت بما أحرزته من تقدم هائل خلال خمس سنوات من بناء نظامها الإشتراكي، أيمكن أن تكون هذه الصناعات الجبارة وهذا الفن الرفيع من عمل الصين المتخلفة التي وصفتها الأديبة الأمريكية بيرل بك في قصصها، والتي كنت ألخصها للإذاعة؟

دخلنا أيضا الجناح الفلسطيني وأفواج المتفرجين يتدافعوننا، ووقفنا نتأمل لوحة جبصينية ملوّنة تمثل الغدرالنذل الذي أصاب عائلة فلسطينية، وأحسست بالألم الدفين يحيا جديدا في قلبي، وانبعثت في ذاكرتي صورة طرية لعائلة أبيدت أمام عيني، وصور الجرحى والأشلاء والدماء في مستشفى الهوسبيس، حيث تطوّعت كممرضة، وحياة التشرد لمليون أنسان وأختي التي ماتت في ربيع العمر، ويموت مثلها الآلاف تحت الخيام.. ولم أملك دموعي أن تنهمر من عيني.. لقد خجلت من فرحي وحبي، كنت مطرقة ولست أدري أنه كان ينظر الي، ولكنني سمعته يتنهد، وشد على يدي فرفعت وجهي اليه وتلاقت عينانا في نظرة طويلة عرفت فيها أنه شقيق روحي.. انني لا أرى سواه، لا أرى سوى العينين العسليتين تتوهجان بالدمع.. ماذا يهمني بعد أن يرمقني الناس في فضول؟

* * *